محاضرات في "السيرة النبوية والخلافة الراشدة"

أ . العربي لخنيك

مدخل إلى دراسة السيرة النبوية

تعريف السيرة النبوية:

- **السيرة في اللغة:** من سار سَيراً، وتَسْيارا، ومَسارا، وسار السِّيرةَ سلكها واتّبعها، والسيرة تطلق على السنة والطريقة والهيئة والمذهبُ، ووصفُ السلوك ، والخطى والحالة التي يكون عليها الإنسان.
- ويقال **استار** بسَيرْ فُلاَن، أي مشى على خطته واستن بسنته ، كما يقال **سار** في الناس أو بالناس سيرة حسنة أو قبيحة.
- **أما السيرة في الاصطلاح فهي** " ما نقل إلينا من أحداث حياة النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته الخُلقية والخَلقية، مضافا إليها غزواته وسراياه من مولده إلى وفاته، وما يتعلق بذلك من أشخاص ووقائع مع ترتيبها ترتيباً زمنيا".

الفرق بين السيرة النبوية والسنة النبوية:

- السيرة النبوية هي ذكر الأحداث والقصص التي حصلت مع الرّسول -عليه السّلام- على وجه الخصوص، وقد تُؤخذ منها العبر والدروس المستفادة وربما تتطرق إلى بيان الأحكام الشرعية،
- أمّا السنة النبوية هي التي يُستفاد منها بصورة رئيسة معرفة الأحكام الشرعيّة واستنباطها والقياس عليها ومن ثمّ تطبيقها، وهي المصدر الثاني من مصادر التشريع في الشريعة الإسلامية.

أهمية دراسة السيرة النبوية:

تعتبر السيرة النبوية ذات أهمية كبيرة للمسلمين، ذلك أنها تتعلّق بخير قدوة ومرجعية للأمة و للإنسانية جمعاء، وفي دراسة السيرة فوائد عظيمة جداً منها:

أولا: أن محمدا صلى الله عليه وسلم **أسوة للعالمين** ومرجع لهم ؛ في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات كما قال الله سبحانه وتعالى " :لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرا "الأحزاب:21 ، وتحقيق هذا التأسّي ينبني على معرفة سيرته وهديه.

ثانيا: أن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام تعتبرُ **ميزانا** للحكم على الأعمال؛ فما كان منها موافقاً لهديه حكم بصحته وقبوله، وما كان مخالفا لسيرته عليه الصلاة والسلام يحكم بردّه.

- يقول سفيان ابن عيينة رحمه الله في بيان هذا المعنى: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو **الميزان الأكبر** ؛ فعليه تعرض الأشياء ، على خُلقه وسيرته وهديه ، فما وافقها فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل".

ثالثا: السيرة النبوية مصدر مهم لفهم **وتفسير القرآن الكريم**، لأن حياة النبي صلى الله عليه وسلم هي التطبيق العملي لتعاليم القرآن ه ، فلما سُئلت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عن خُلقه عليه الصلاة والسلام قالت: **"كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"**. كما أن السيرة النبوية تفيد في معرفة **أسباب النزول** الذي تعتبر من أعظم أبواب معرفة معاني القرآن الكريم.

- **رابعا:**دراسة السيرة باب عظيم من أبواب تعميق **محبة رسول الله** صلى الله عليه وسلم التي تعتبر من شروط كمال الإيمان؛ قال صلى الله عليه وسلم "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" متفق عليه .
- وتعميق هذه المحبة يتوقف على **دراسة السيرة** و التدبّر في أسرارها ونفائسها، فالتمعّن في تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلّم بنية التعظيم والتأسي تنقل صاحبها من مقام الاطّلاع إلى مقام التشرّب **والاستمداد،**
- والسّر في ذلك أن السيرة كلها **رحمة** ورفق و حسن خلق **وأدب رفيع،** وهذا ما يعطي لشخصه صلى الله عليه وسلم جاذبية واثر في الأنفس.

خامسا:فقه السيرة واتّباعها باب من أبواب زيادة الإيمان،
قال الله تعالى:" **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** "المؤمنون:69 ؛ فمعرفة خصاله وآدابه الكاملة ومعاملاته العظيمة سبب للإقبال على هذا الدين للإيمان لغيرالمِؤمنين لمن سبق توفّر في صدق في طويته، وسبب لزيادة الإيمان في حق المؤمن .
وخير مثال على الأثر الخارق للسيرة في الأنفس قول ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة حين أسلم »يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهُ الْأَرْضِ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ« .
روى الإمام أحمد عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ : يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ رَجُلٍ لَا يَخَافُ الْفَاقَةَ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَجِيءُ إِلَيْهِ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا فَمَا يُمْسِي حَتَّى يَكُونَ دِينُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا.

سادسا: دراسة السيرة تفيد في **فهم الدين** كله؛ عقيدةً وعبادةً وخُلقاومعاملات، حيث إنّ الدارس لسيرته صلى الله عليه وسلم يدرك منهجه في تنزيل هذا الدّين، بالدعوة إلى العقيدة والتوحيد أوّلا، ثم العمل بعد ذلك على بعد ذلك على بيان الأحكام العملية شيئاً فشيئا. فدراسة السيرة فيها البيان العملي للعقيدة ، والمعرفة لتدرّج التشريع ، والإحاطة بالتطبيق العملي للدين بتمامه.

سابعا: دراسة السيرة النبوية أكبر عون للتحقّق بالمنهاج النبوي الصحيح **للدعوة**، والدخول تحت قوله تعالى: " **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**" يوسف 108**.** والدعوة إلى الله لا بدّ لها من هذه **البصيرة** التي لا يمكن التمكّن منها إلا عبر تشرّب معاني سيرته صلى الله عليه وسلم.

ويتجلى ذلك في استيعاب نهجه صلى الله عليه وسلم في الخطاب والتواصل، وأخلاقه وأناته وسماحته وصبره ورفقه ،إلى غير ذلك من مقوِّمات النّجاعة في الدعوة إلى الله.

- خامسا:أنَّ الشمائل والخصال النبوية تشكّل منظومة مرجعية لكلِّ من يطمح إلى **السعادة** والخير والرفعة والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، كما أنها تمكنه من تربية الناشئة على منوالها، وفيها الشفاء والبلسم والنجاة من واقع الضياع والانحلال والاختلال في **القِيَمِ** والموازين الذي يرزح تحته الكثير من الشباب.
- يقول ابن القيم رحمه الله: "فالله سبحانه علَّق سعادة الدَّارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذّلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة "زاد المعاد (1/36).

مصادر السيرة النبوية

- **القرآن الكريم:**
- نجد في القرآن الكثير من عناصر السيرة النبوية، حيث ذكر القرآن الكريم حال النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين، ومكائدهم ضدّه ،
- كما نجد في القرآن الكريم حديثا عن أهم المعارك التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم وجنده بعد هجرته ، مثل معكرة بدر وأحد و حنين والأحزاب ، وصلح الحديبية ، وفتح مكة ،.
- كما نجد أيضا ذكرا لمعجزاته صلى الله عليه وسلم ، كمعجزة الإسراء والمعراج
- والقرآن الكريم لم يتعرّض لوقائع السيرة بالتفصيل ، فلا يذكر مثلا عدد الجند أو عدد القتلى وغير ذلك. لذلك فنصوص القرآن وحدها لا تكفي لبناء المشاهد الكاملة المتعلقة للسيرة النبوية.

- **كتب السنة:**
- تشكل كتب السنة الصحيحة، المروية بالسند المتصل إلى الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم الذين عاشروا الرسول ولازموه، المرجع الأساس لمعرفة تفاصيل السيرة النبوية، فنجد فيها القسم الأكبر من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ووقائعه وحروبه ، وأعماله ،
- وكل مرويات السيرة المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، بالسند الصحيح المتصل يجب أن نقبله **كحقيقة تاريخية** لايشوبها أدني شك.
- **الشعر المعاصر لفترة النبوة:**
- كان المشركون يهاجمون النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته من خلال شعرائهم ، فكان يرد عليهم ثلة من الشعراء المسلمين، كحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وغيرهما ،
- هذه الأشعار الموجودة في كتب السيرة وكتب الأدب تتضمن حقائق كثيرة عن شخص النبي صلى الله عليه وسلم والبيئة التي ترعرع فيها هو و دعوته .

- **صحائف السيرة:**
- كانت وقائع السيرة النبوية روايات يرويها الصحابة رضوان الله عليهم إلى من بعدهم ، ثم تناقل التابعون هذه الأخبار ودونوها في صحائف عندهم ،
- وممن اختص بجمع السيرة : أبان بن عثمان ابن عفان رضي الله عنه (32- 105هـ) و عروة بن الزبير بن العوام (23- 93هـ) ومن صغار التابعين عبد الله بن أبي بكر الأنصاري (توفي سنة 135هـ) وابن شهاب الزهري (50 - 123هـ)، وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (توفي سنة 129ه).
- **المؤلفات المتخصصة في السيرة:**
- من أشهر أوائل المصنفين في السيرة **محمد بن إسحاق** بن يسار (ت152 هـ) وقد اتفق جمهور العلماء والمحدثين على توثيقه،
- ألف ابن إسحاق كتابه " **المغازي** " من أحاديث وروايات سمعها بنفسه في المدينة ومصر ، ومن المؤسف أن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، لكن مضمونه الكتاب بقي محفوظاً بما رواه عنه **ابن هشام** في سيرته عن طريق شيخه **الكبائي** الذي كان من أشهر تلامذة ابن اسحاق.

- **سيرة ابن هشام:**
- ألف ابن هشام كتابة " **السيرة النبوية** " مما رواة شيخه الكبائي عن ابن إسحاق ، ومما رواه عن شيوخه ، مما لم يذكره ابن إسحاق في سيرته ، وقد ردّ كل الروايات التي لم يقبلها مما كتبه ابن ابن اسحاق،
- وهو من أوفي مصادر السيرة النبوية ، وأصحها ، وأدقها ، مما جعل الناس ينسبون كتابه إليه ، فيسمونه : "سيرة ابن هشام".
- **طبقات ابن سعد:**
- سار ابن سعد في كتابه " الطبقات " على ذكر أسماء الصحابة والتابعين بعد ذكر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بحسب طبقاتهم ، وقبائلهم، وأماكنهم،
- ويعتبر كتابه " الطبقات " من أوثق المصادر الأولى للسيرة النبوية ،

- **تاريخ الطبري:**
- ألف كتابه في التاريخ غير مقتصر على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل ذكر تاريخ الأمم قبله ، وأفرد قسماً خاصاً لسيرته صلى الله عليه وسلم ، ثم تحدّث عن تاريخ الدول الإسلامية ،
- يعتبر الطبري حجة ثقة فيما يروي ، لكنه كثيراً ما يذكر روايات ضعيفة، مكتفياً بإسنادها على رواتها الذين كان أمرهم معروفاً في.
- **تطور التأليف في السيرة النبوية:**
- تطور التأليف في السيرة ، فظهرت مؤلفات خاصة مثل " دلائل النبوة " لأبي نعيم ، " والشمائل المحمدية " للترمذي ، و " زاد المعاد " لابن قيم الجوزية ، و " الشفاء للقاضي عياض، و" المواهب اللّدنية" للقسطلاني وغيرها

- بعد ذلك ظهرت مؤلفات بأسلوب حديث ، ومن أشهرها :
- نور اليقين في سير سيد المرسلين " للشيخ محمد الخضري،
- وفقه السيرة لسعيد رمضان البوطي،
- وفقه السيرة لمحمد الغزالي،
- والرحيق المختوم للمباركفوري،
- والسيرة النبوية دروس وعبر لمصطفى السباعي...